أطوار بهـــــــــــجت

محمد كريشان

لن توجد المفردات التي تعبر بصدق عن مدى خسة و نذالة أولائك المجرمين الذين خطفوا أطوار بهجت و زميليها من بين الجموع و قتلهم و رمي جثثهم و قد نخرتها رصاصات الغدر طولا و عرضا. لا أحد يستطيع أن يتخيل حتى في أكثر سيناريوهات الرعب قذارة أن يقدم رجل مهما كان دينه ومذهبه أن يتعامل مع شابة جميلة و بشوشة و مسالمة و عزلاء بهذه الوحشية التي يستحيل استساغتها من أشد الأعداء شراسة و حقدا فكيف يمكن أن تقبل من أبناء جلدتك و دينك، فلا أبسط قيم الإنسانية التي تجمعنا - مهما تعددت مللنا و مشاربنا- تسمح و لا رباط الدم و العقيدة يغفر.

لقد قتلت أطوار لذاتها، كما قال أحدهم ، أي أنها على عكس كثيرين من زملائها لم تلق مصرعها في قصف أو تبادل نيران أو عند حاجز تفتيش بل إن من جاء يسأل عنها قصدها هي بالذات مع أن لا شيء على الإطلاق، على الإطلاق، يمكن أن يبرر المس بشعرة منها سواء تعلق الأمر بتقارير صحفية أرسلتها أو آراء عبرت عنها أو محطة كانت تعمل بها أو أخرى التحقت بها، فضلا عن أن الاعتبارات الإنسانية الدنيا ما كانت لتجعل شخصا سويا يقدم على تصفيتها بهذا الانحطاط فقد كان يمكن أن يكون خطفها و تهديدها "رادعا كافيا" حتى و إن كنا لا نقر ذلك أيضا لكنه يبقى بما لا يقارن أفضل من قتل آنسة لم تسئ لأحد و كانت العائل الوحيد لأمها و أختها بعد ما رحل الوالد.

حين تقدمت أطوار للعمل في المكتب الجديد لقناة "الجزيرة" في بغداد بعد سقوطها، و كان ذلك في نهاية مايو- أيار بداية يونيو حزيران 2003 ، شاءت الصدف أن أكون صحبة الزميل تيسير علوني من أوائل من التقى بها و شجعها فقد لمسنا فيها عاطفة جياشة و حبا جارفا للمهنة التي عرفتها أولا في الصحافة المكتوبة قبل التلفزيون العراقي . و بسرعة كبيرة فرضت أطوار نفسها خاصة و أنها لم تكن تتعامل مع مخاطر التغطيات الإخبارية اليومية الدامية في العراق من منطلق أنها فتاة بل كانت دوما أول من يرغب في الذهاب إلى أرض الحدث عند كل تفجير أو اشتباكات و أذكر جيدا كيف جاءتني ذات يوم من أيام حصار الفلوجة الأولى في أبريل- نيسان 2004، و كنت وقتها في بغداد ثانية، و هي غاضبة متأففة من أن مديرمكتب بغداد لم يبعثها لتغطية التطورات الملتهبة هناك و فضل عليها زملاء آخرين من الذكور و عبثا حاولت تهدئتها من أن وراء ذلك خوفا عليها و ليس تشكيكا في كفاءتها .

لهذا تحديدا لم تطق أطوار صبرا بعد أن أغلق مكتب بغداد في أغسطس آب 2004 فلم تستطع أن تتأقلم لا مع عمل غرفة الأخبار في الدوحة و لا مع بعض التغطيات الخاصة في عمان و القاهرة. كانت تعشق العراق الذي جعلت خارطته قلادة في رقبتها لذلك عادت إليه بنهم شديد تبحث عن الأحداث المشتعلة و كأنها فراشة لا تكترث من الاقتراب من ضوء سيحرقها بالتأكيد بل لعلها ظنت أن براءتها

ووسامتها و علاقتها الطيبة مع جميع الفرقاء السياسيين تشفع لها في الملمات. و حتى حين ارتدت الحجاب لم أشأ أن أسألها عن ذلك فقد فهمت أن في هذا الاختيار الشخصي البحت بعض الحرص ربما على عدم الاصطدام مع مناخ عام بات مهيمنا في البلاد .

شجاعة أطوار و جرأتها تجعلني أتخيلها في ساعتها الأخيرة تجادل خاطفيها و تفحمهم لكن رهط من تعاملت معهم كان على الأرجح من أولائك الذين أقفلوا دماغهم بمفتاح ثم رموا به في دجلة أو الفرات لذلك لم يرعوا قليلا أو كثيرا بل و قد تكون أغاظتهم أكثر في سجالها معهم كما يشهد على ذلك جسدها المثقوب برصاصات الجهل و الحقد من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها .

بعد استشهادها بيومين جاءتني زميلة في غرفة الأخبار لتقول لي بأن أطوار تحدثت إليها قبل يوم من الفاجعة و أنها تبعث إلي بالسلام ... الله يسلـّمك يا أطوار و أنت بين يدي السلام نفسه.

///==========

1 مارس 2006.